من عالم الصراب

الباب المغلق

قصة قصيرة من عالم الصراب

مهلهل علي الفقيه

١ — الفجر

كان فرج حارس السوق يمرّ بمخزن مسعود عند آخر الليل، فسمع في داخله شيئاً يتحرك.

ركض إلى بيت مسعود، وجاء به نصف نائم، والمفتاح الوحيد في رقبته كما هو منذ السرقة الثانية. وفتح مسعود القفل بيده، والناس قد بدأوا يجتمعون.

ورأوا الفتاة جالسة بين أكياس القمح، حافية، ترتجف، وثوبها مبتل حتى الركبتين وفيه رائحة البحر. وكانت يدها اليمنى مقبوضة على صدرها.

ولم تتكلم نوال. كانت تنظر إلى الجدران حولها كأنها لا تعرف أين هي. وحين أمسك فرج معصمها وفتح أصابعها بالقوة، سقط منها حجر أسود أملس بحجم البيضة، وتدحرج تحت الأكياس.

وقالت أول كلمة: «كنت على الشاطئ.»

ضحك أحدهم. والشاطئ على مسيرة ساعة.

٢ — المجلس الأول

قال مسعود أمام القاضي: «المخزن مقفل، والسقف سليم، والجدران من حجر، والمفتاح لا يفارق رقبتي. وجدناها في الداخل. ماذا تريد أكثر من هذا يا مولانا؟»

ونظر القاضي سليمان إلى الفتاة طويلاً. ثم نظر إلى قدميها الحافيتين.

«كيف دخلتِ؟»

«لا أعرف.»

«ماذا أخذتِ؟»

«لا شيء.»

قال مسعود: «لأنها لم تجد وقتاً.»

قال القاضي: «وكيف ستخرج بما تسرقه من مخزن لا تعرف كيف دخلته؟»

ولم يجد مسعود جواباً. لكنه قال بصوت أخفض، وفيه شيء يشبه الرجاء: «مولانا، سُرقت مرتين. وشركائي أرسلوا رجلاً يعدّ الصندوق صباح الخامس عشر، ويظنونني لصاً. أنا لا أطلب أن تُقطع يدها. أطلب أن يعرف الناس أن في هذه المدينة سارقاً غيري.»

وكتب يونس كل شيء.

وفي آخر المجلس دخل صبي صغير حافٍ، وفي يده نعلان من الجلد البالي، وصرخ قبل أن يمنعه أحد:

«نعلاها! وجدتهما على الرمل! أختي كانت معي على الشاطئ، وأمسكت الحجر، و... واختفت. كانت هنا، ثم لم تكن.»

وضحك الناس في المجلس.

لكن القاضي لم يضحك. أخذ النعلين من يد الصبي، وقلّبهما، ووجد في شقوق الجلد رملاً مبتلاً.

وقال: «يُرفع المجلس. والفتاة في بيت أمها، لا تخرج من المدينة. حتى أرى.»

قال مسعود: «حتى ترى ماذا يا مولانا؟»

ولم يجبه.

٣ — يونس

في الليل جلس يونس عند سليمان، وهو يقرأ عليه ما كتب.

«يا سيدي، كل الناس يقولون إنك ستبرئها لأنك صرت تخاف أن تحكم. يقولون: القاضي البطيء صار القاضي الواقف.»

«وأنت ماذا تقول؟»

«أقول إن الصبي كاذب يحب أخته. تركت نعليها على الشاطئ ومشت ساعة حافية إلى المخزن. والقفل يمكن أن يُفتح بمفتاح آخر.»

«ومن أين لها مفتاح آخر؟»

«لا أعرف. لكن ليس عندنا تفسير غير هذا.»

قال سليمان: «قبل عشرين سنة قلت الجملة نفسها. سُرق مخزن، وكان بابه مقفلاً، ولم يقترب منه في تلك الليلة أحد غير حمّال شاب، فحكمت عليه بالسجن. ومات في الشتاء نفسه. وبعد سنة جاءني رجل آخر واعترف بالسرقة، وأراني كيف دخل.»

ونظر إلى السراج.

«كانت جملة صحيحة يا يونس: ليس عندنا تفسير غير هذا. والحكم كان خطأ.»

وسكت يونس.

ثم قال القاضي: «نظرتُ إلى قدميها في المجلس. ليس عليهما إلا رمل البحر، جافاً بين الأصابع. ساعة حافية في طريق السوق، بين الطين وروث الدواب، ولا يعلق بقدميها منه شيء؟»

«ربما غسلتهما.»

«ربما.» وأطفأ السراج. «أنا لا أحكم بربما يا يونس.»

٤ — الحجر

في الصباح ذهب سليمان إلى المخزن وحده، وطلب من مسعود أن يفتحه، وبحث تحت الأكياس حتى وجد الحجر الأسود.

لم يلمسه بيده. لفّه في منديل وأخذه.

ولما خرج وقف أمام جدار المخزن. كان مبنياً من حجارة سوداء ملساء، وفي أسفله صفّ من حجارة أحدث لوناً من غيرها.

قال مسعود: «بعد السرقة الأولى ظننت اللص نقب الجدار. فنزعت الحجارة المشقوقة وبنيت مكانها.»

«وأين ذهبت الحجارة القديمة؟»

«رماها البنّاؤون على الشاطئ مع الردم. ولماذا يا مولانا؟»

«لا أعرف.»

ثم نزل إلى الشاطئ، ومشى على الرمل حتى وجد الحجارة السوداء الملساء، كثيرة، تلمع حين يبللها الموج. وأخذ واحداً منها بيده العارية، وقبض عليه، وانتظر.

لم يحدث شيء.

وأخرج حجر نوال من المنديل، ووضعه بجانب الآخر على راحة يده المبسوطة، دون أن يقبض عليه. كانا متشابهين، كأنهما من صخرة واحدة.

ولم يعرف إن كان لذلك معنى.

٥ — نوال

ذهب إلى بيتها في المساء.

كانت تغزل شبكة في ضوء السراج، وأمها نائمة في الزاوية تسعل. ووقفت حين رأته، ولم تعرف أين تضع يديها.

قال: «اجلسي. احكي لي الليلة كلها، من أولها.»

فحكت.

«أنزل إلى الشاطئ كل ليلة. أبي غرق في الريح الشرقية، وقالوا إن البحر يعيد ما أخذه مع الريح الغربية. وكانت الريح غربية تلك الليلة. ومعي صالح، لأنه لا يريد أن يبقى مع أمي وهي تسعل.»

«ولماذا أمسكتِ الحجر؟»

ضحكت ضحكة صغيرة مكسورة. «أبي كان يقول: إذا خفتِ من البحر فأمسكي حجراً من أرضه، فيعرف أنك منه ولا يأخذك. دخلت الماء إلى ركبتيّ لأرى شيئاً يطفو، فإذا هو خشب، ولم يكن من قاربه. فخرجت وصعدت على الصخرة السوداء التي كان أبي يجلس عليها يصلح شباكه، وأنا أرتجف، وأمسكت أول حجر لمسته يدي.»

«ثم؟»

«ثم كنت في الظلام. ورائحة قمح. وأكياس خشنة تحت يدي. وصرخت، فلم يسمعني أحد. فجلست ولم أتحرك، وظللت قابضة على الحجر، لأنه كان الشيء الوحيد الذي جاء معي.»

نظر إليها سليمان طويلاً.

«حين وجدتِ نفسك في المخزن، هل كان فيه أحد غيرك؟»

وترددت نوال.

«لا أعرف يا مولانا. قبل الفجر سمعت صوتاً عند الباب، كمفتاح يدور. فقمت من الخوف، فوقع كيس. فتوقف الصوت. ثم لم أسمع شيئاً.»

وفي طريقه إلى بيته مرّ سليمان بمسعود، وسأله سؤالاً واحداً:

«أين كان المفتاح تلك الليلة؟»

«في رقبتي يا مولانا. أنام عليه.»

٦ — الوصية

في ليلة الرابع عشر كتب سليمان وصيته.

لم تكن طويلة. بيته لأخته، وكتبه ليونس، وثلاثة دنانير لأم الحمّال الذي مات في السجن قبل عشرين سنة، وكان يرسلها إليها كل عام دون أن يذكر اسمه.

ولما رأى يونس الورقة ألقى القلم.

«ماذا تفعل يا سيدي؟»

«سأمسك الحجر.»

«أنت مجنون. ولماذا الليلة؟»

«لأن رجل الشركاء يعدّ الصندوق في الصباح.»

«فضع رجالاً تثق بهم عند الباب.»

«قد نعرف بذلك من يسرق. لكن يبقى قولها إنها كانت على الشاطئ.»

«ولماذا تخاطر أنت؟»

«لأني أستطيع أن أرفض. وهي قد تظن أن عليها أن تفعل كل ما أطلبه لتعود إلى بيتها.»

وسكت يونس. ثم قال:

«وإذا ذهبت إلى قاع البحر؟ إلى بئر؟ إلى سطح يسقط منه؟ أنت لا تعرف لماذا ذهبت هي إلى المخزن ولم تذهب إلى غيره. وقد لا يعمل الحجر في يدك أصلاً. قد لا يعمل إلا لها، أو مرة واحدة.»

«إن لم يعمل، فلن أعرف شيئاً. ولن تكون هي كاذبة.»

«فاطلب منها أن تمسكه أمامك.»

«لا. إن كان أحد سيخاطر في هذه القضية، فهو الذي لم يرَ.»

وسكت يونس طويلاً. ثم قال بصوت مكسور: «خذني معك. أمسك يدي.»

نظر إليه سليمان، ولأول مرة منذ سنين ابتسم له.

«لا يا يونس. أريد شاهداً يبقى على الشاطئ ويرى. وأريد من يكتب.»

٧ — الشاطئ

نزلوا إلى الشاطئ في منتصف الليل، سليمان ويونس وصالح. ولم يخبروا أحداً.

وأشار صالح إلى الصخرة السوداء، يابسة فوق ما يبلغه الموج. فصعد القاضي عليها، والريح غربية.

وقال ليونس: «اكتب: في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، في منتصف الليل، على شاطئ المدينة، بحضور الكاتب يونس والصبي صالح، أخرج القاضي سليمان الحجر من المنديل، وأمسكه بيده...»

ثم أخرج الحجر، وأمسكه.

ورأى يونس وصالح الرجل العجوز يقف أمامهما على الصخرة في ضوء القمر، وثوبه يرفرف في الريح.

ثم لم يكن هناك.

لم يكن صوت، ولا ضوء، ولا شيء. فقط الصخرة خالية، والريح تمرّ عليها.

جلس يونس على الرمل، والقلم في يده لا يتحرك.

وقال صالح بصوت صغير منتصر وخائف: «قلت لكم.»

٨ — الظلام

كان الظلام كاملاً، ورائحة القمح، وخشونة الأكياس تحت يده.

المخزن.

بقي سليمان في مكانه، ويده اليمنى مقبوضة على الحجر، يسمع قلبه. وفكّر في شيء غريب في تلك اللحظة: فكّر في الحمّال، وفي أنه لم يعرف قط كم ليلة جلس ذلك الشاب في الظلام ينتظر رجلاً يصدّقه.

ثم سمع المفتاح.

كان الصوت عند الباب، مفتاحاً يدور ببطء شديد، كأن صاحبه يحاول ألا يسمعه أحد.

زحف سليمان في العتمة ليختبئ خلف الأكياس، فانثنى معصمه الأيسر تحته على حافة صندوق، وسمع صوتاً كغصن ينكسر. فعضّ على كمّه، ولم يخرج منه صوت.

وانفتح الباب قليلاً، ودخل ضوء مصباح صغير مغطى بقماش، ودخل رجل.

ورأى سليمان في الضوء الضعيف وجه فرج.

مشى فرج بين الأكياس كأنه يعرف كل واحد منها. ووقف عند الصندوق في الزاوية، وفتحه بمفتاح صغير، وأخرج صرة، ووزنها في يده، وأخذ منها بعضها، وأعاد الباقي، وأقفل الصندوق.

ثم خرج، وأدار مفتاحه في قفل الباب.

وجلس سليمان في الظلام حتى الفجر، ومعصمه ينبض، والحجر في قبضته. ولم يفتح يده، لأنه لم يكن يعرف ماذا يحدث لو فتحها. وكان قد رأى أخيراً.

٩ — الفجر الثاني

جاء مسعود عند أول الضوء ومعه رجل الشركاء، وفرج يحمل المصباح خلفهما. وفتح مسعود القفل بالمفتاح الذي في رقبته.

ورأوا القاضي سليمان جالساً على كيس من القمح في وسط المخزن، شعره الأبيض مبعثر، ويده اليسرى ملفوفة بطرف عمامته.

وسقط المصباح من يد فرج.

قال مسعود بصوت لا يكاد يخرج: «مولانا؟ كيف... الباب كان...»

قال القاضي: «مقفلاً. أعرف.» ثم قال لرجل الشركاء: «عُدّ الصندوق.»

فعدّه، ووجده ناقصاً.

ونظر القاضي إلى الحارس، ولم يقل شيئاً.

١٠ — المجلس الأخير

امتلأ المجلس كما لم يمتلئ في ثلاثين سنة.

كان فرج مقيداً في الزاوية، وعلى الطاولة أمام القاضي ما وجدوه في بيته: مفتاح منسوخ لقفل الباب، ومفتاح صغير للصندوق، وما نقص من الصندوق. وكان مسعود واقفاً، وقد شحب وجهه كأنه هو المتهم. وكانت نوال جالسة بجانب أمها، وصالح بجانبها يكاد يقفز من مكانه.

ويونس يكتب.

قال القاضي سليمان:

«لم تقم بيّنة على أن نوال سرقت. لم يُوجد معها شيء من المخزن، ولم يُرَ مفتاح في يدها. وقد ثبت عندنا إمكان دخول المخزن دون فتح بابه. فأحكم بأنها بريئة.»

وصاح الناس. ورفع القاضي يده فسكتوا.

«وشهد الكاتب يونس والصبي صالح أنهما رأياني أختفي على الشاطئ وأنا أمسك هذا الحجر. وأشهد أنا أني وجدت نفسي في مخزن مسعود المقفل، ولا أعرف كيف. فلا يسألني أحد عما لا أعرف.

ورأيت فرج يدخل المخزن ويأخذ من الصندوق، ووجد رجل الشركاء الصندوق ناقصاً، ووُجد المفتاحان في بيته. فأحكم بأنه سرق ليلة أمس.

أما السرقتان السابقتان، فلم تقم عندي بيّنة عليه فيهما.»

ثم قال:

«وأحكم بشيء آخر، واكتبه يا يونس كما أقوله:

من وجد نفسه في مكان لم يقصده ولم يُؤذن له فيه، ولم يأخذ منه شيئاً، فلا حدّ عليه ولا ذنب. وإن عرف أحد بعد اليوم طريقاً إلى بيت لا يمر بالباب، فمعرفته بالطريق لا تجعل له في البيت حقاً. ومن دخل به عامداً فقد دخل بلا إذن، وحكمه حكم من كسر الباب.»

وكتب يونس، وهو لا يفهم تماماً لماذا يحتاج إلى أن يكتب حكماً لشيء لم يحدث إلا مرتين.

ونظر سليمان من نافذة المجلس إلى البحر.

١١ — الشبكة

في المساء جاء مسعود إلى بيت نوال، ومعه رجلان يحملان شبكة كبيرة ومجدافين.

قال وهو لا ينظر إليها: «شباك أبيك. والقارب على الشاطئ.»

قالت نوال: «والدَّين؟»

«سقط. اتهمتكِ لأني كنت أريد سارقاً، لا لأني كنت أظنك سارقة.»

ثم أضاف بصوت أخفض: «واعترف فرج في السجن بالسرقتين قبلها. ورحل رجل الشركاء.»

ولم يقل أكثر. وخرج.

١٢ — الشاطئ مرة أخرى

بعد شهر، حين جبر المجبّر معصم سليمان، نزل إلى الشاطئ عند الغروب.

وجد نوال وصالح هناك. كانت نوال تصلح شبكة على الرمل، وصالح يرمي الحجارة في الموج.

جلس القاضي على صخرة بجانبهما. وأخرج من كمه المنديل، وفي داخله الحجر الأسود.

قالت نوال: «ستحتفظ به؟»

«لا أعرف ماذا أفعل به. لو رميته في البحر، فقد يجده صياد غداً ويمسكه. ولو دفنته، فقد يحفر أحد هنا بعد مئة سنة. ولو احتفظت به، فأنا رجل عجوز سيموت، ويرث يونس كتبي، وهو لا يعرف أن يحفظ شيئاً.»

وضحك صالح.

وقالت نوال بعد صمت: «لماذا لم تطلب مني أن أمسكه أمامك؟»

ولم يجب. نظر إلى البحر.

ونظرت نوال إلى معصمه المجبور، ثم إلى الحجر في المنديل.

ثم مدت يدها، وأخذت المنديل منه وطوته على الحجر جيداً، ثم أعادته إليه.

وقالت: «احتفظ به يا مولانا. أنت الرجل الوحيد في هذه المدينة الذي أعرف أنه لن يمسكه لكي يأخذ شيئاً.»

وأخذ القاضي المنديل، ووضعه في كمه.

وفي ذلك المساء، لأول مرة منذ عشرين سنة، لم يرسل الدنانير الثلاثة إلى أم الحمّال دون اسم. بل حمل معصمه المجبور ومشى إلى بيتها في طرف المدينة، وطرق الباب.